الباب الثاني

أيها الإنسان من أنت؟

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
من تراب ثم قال له كن فيكون)

(٥٩ آل عمران)

«كلكم لآدم وآدم من تراب».

(حديث شريف)

obeikandl.com

obeikandl.com

أيها الإنسان .. من أنت ؟

ما حقيقتك ؟ ومن تكون ؟ لو سأل الإنسان نفسه هذا السؤال الواضح البسيط لأعياه الجواب . ذلك أن بعض الناس قد تتداعى إلى أذهانهم إجابات سطحية فجة وتافهة ، فقد يعرف أحدهم نفسه باسمه ونوعه وجنسه وشكله .. وقد يرى غيره أن ذلك التعريف به قصور فيضيف إليه مؤهلاته العلمية وعمله ومحل سكنه وحالته الاجتماعية .. وقد يضيف ثالث معلومات أخرى حتى يستطرد فى سرد القصص توضيحًا وتفصيلا .. ولكن حتى ذلك الثالث الذى يظن أنه شرح فأوفى وجمع فأوعى .. سوف يضحك من نفسه طويلا إذا علم أن الإجابة على ذلك السؤال تقتضى منه أن يدفع من عمره بضع سنوات بحثاً وتفكيرًا :

يقول العقاد فى كتاب له بعنوان (الإنسان فى القرآن)[1] .

(استمع الناس إلى **المادية التاريخية** فقالت لهم إن الإنسان عملة (اقتصادية) فى سوق الصناعة والتجارة تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية فقالت لها إنها شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور .

واستمع الناس إلى **الفاشية** فقالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود وإن أبناء الإنسانية جميعًا عبيد للعنصر السيد والعنصر السيد قبل

(١) سبق الإسارة.

ذلك عبد للسيد المختار بغير اختيار .

واستمع الناس إلى **العقلية** فقال لهم قائل منها إن (إنسانيتهم) كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وأن الشيء الموجود حقًا هو الفرد الواحد ، وبرهان وجوده حقًا أن يفعل ما استطاع من نفع أ وأذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .

وغير جديد ما استمعوه من أهل **العقائد الإلهية** عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء ومكانه من إخوته فى آدم وحواء .

سمعوا أنه روح وجسد .. ودنيا وآخرة .. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء .

وسمعوا أنه إنسانان : إنسان صحيح مقبول .. وإنسان زائف مدخول – صحيح مقبول .. كل من اجتباه مولاه على هداه – وزائف مدخول .. كل من خلقه ونفاه ولعله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ويموت بذنب غيره .. ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ومن إباء أو اختيار .

وسمعوا من **القرآن** عن بنى الإنسان غير ذلك :

فهم متدبرون يستمعون إلى العقل .. كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه .. فالإنسان فى القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع و (الإنسانية) من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها(نسب واحد ورب واحد ..) .

ومن آياته أن خلقكم من تراب

من بين سور القرآن البالغ عددها مائة وأربعة عشر سورة تحدثت أكثر من سبعين سورة منها عن خلق الإنسان وعن أطوار هذا الخلق المعجز البديع وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هذه الآيات من كتاب الله :

– (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً) (١ الإنسان) .

– (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)

– (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من صلصال من حمإٍ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين .فسجد الملائكة كلهم أجمعون) . (٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ الحجر)

– (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) . (٦٧ مريم)

– سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) . (٣٦ يس)

– (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . (٢٠ الروم)

– (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) . (١١ فاطر)

– (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً) . (٦٧ غافر)

– (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . (٥٥ طه)

- وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه) . (٧ ، ٨ ، ٩ السجدة)

- (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (١٢ ، ١٣ ، ١٤ المؤمنون) .

- (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) . (٢ الأنعام)

- (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) . (٢٦ الحجر)

- (خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار) . (١٤ ، ١٥ الرحمن)

- (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) . (١٨٩ الأعراف)

- (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديراً) . (٥٤ الفرقان) .

- (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) . (٥ الطارق)

- (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء) . (النساء)

- (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) . (٢ الإنسان) .

- (قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ،

ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره) . (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ عبس)

- (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) . (٧٩ المؤمنون)

- (وقد خلقكم أطوارًا) . (١٤ نوح)

- (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق) .

- (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة) . (٥٤ الروم)

- (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شـهدنا) . (١٧٢ الأعراف) .

- (الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك) . (٧ ، ٨ الانفطار)

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)

هذه بعض الآيات التى توضح لنا خلق الإنسان ومصادره ومراحله غير أن الله سبحانه وقد خص الإنسان برعايته ينزل فى القرآن آيات أخرى توضح لنا كيف أن الله قد خلق الإنسان متنازعًا بين السمو والإسفاف عنده الاستعداد للترقى .. كذا الاستعداد للتدلى .. والآيات التالية على سبيل المثال أيضاً تبين أن الإنسان فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف :

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)

- (ولقد كرمنا بنى آدم) . (٧٠ الإسراء)

- (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)

- كذلك فإن الآيات التالية على سبيل المثال تقرر أن الإنسان فى الدرك الأسفل من الحطة إذا هو انحدر :

- (أولئك كالأنعام بل هم أضل) . (١٧٩ الأعراف)
- إن الإنسان لظلوم كفار) . (٣٤ إبراهيم)
- (إن الإنسان لربه لكنود) . (٦ العاديات)
- (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) . (٦ ، ٧ العلق)
- (إن الإنسان لفى خسر) . (٢ العصر)

وقد يذكر الإنسان بالصفتين فى الآية الواحدة :

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين) . (٤ ، ٥ التين) .

على أن الآيات التى قصر فيها القول على خلق الإنسان لم تخل مما يوحى بأن أطوار خلق الإنسان السوى هى إعداده لما هو أشرف من حياته الحيوانية عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع ..

* * *

ورد فى مختصر صحيح مسلم – كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم – باب فى ابتداء خلق آدم عليه السلام : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم العصر من يوم الجمعة . فى آخر الخلق .. فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » .

فكرة خلق الإنسان عند بعض الأمم

ارتبطت فكرة الخلق دائماً بإطار دينى منذ فجر التاريخ – ففى الهند مثلا :

نجد الأسفار المعروفة بالكتب الفيدية التى نقرأ فيها نصوصا كهذا النص :

« إن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود » .

وفى **الصين واليابان** نجد نصًّا يقول :

« إن إله السماء هو الذى يصرف الأكوان ويدبر أمور الإنسان » .

وفى تراث الفرس نجد فى عقيدتهم :

« الله هو أسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين وهو أقوى القوى فى عالم الملكوت ومن أسمائه الخلاق .. »

لكن الفكرة **عند الفراعنة** تبدو أكثر وضوحًا وتفصيلا ونرى ذلك فى القصيدة المسماة قصيدة إخناتون وقد جاء فيها :

« أيها الإله الأوحد ، الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا خالق الجرثومة فى المرأة ، ويا صانع النطفة فى الرجل ، ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ، ويا من يهدئه فلا يبكى ، ويا من يغذيه حتى فى الرحم ، يا واهب الأنفاس ، يا من ينعش كل ما يصدفه ، وحين يخرج من الجسم فى يوم مولده تفتح أنت فاهه لينطق وتمده بحاجاته ، والفرخ حين يزقزق فى البيضة تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته ، فإذا ما وصلت به إلى النقطة التى عندها تكسر البيضة خرج من البيضة ليغرد بكل ما فيه من قوة – ويمشى على قدميه ساعة يخرج منها – ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا – أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيدًا – إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها وكل ما على الأرض من دابة وكل ما يمشى على قدميه ، وكل ما هو فى العُلاَ ويطير بجناحيه – إنك تضع كل إنسان فى موضعه وتمدهم بحاجاتهم لتحفظ حياة الناس » .

وهذه النماذج الثلاثة من النصوص ليست كل ما لدى الإنسانية مما يبرز أن الفكرة عاشت فى إطار دينى .. ولكنها بعض الحصاد ..

وسوف نمضى بالقارئ عبر صفحات الكتاب لنرى أن تلك النصوص التى ذكرناها كانت مجرد إشارة لإرهاصات الفكرة فى خطواتها البدائية ، حتى جاء القرآن الكريم ليقص علينا القصة صريحة وصحيحة .. فتبارك الله أحسن الخالقين .

آدم أول الناس والكعبة أول بيت

بدء الإنسانية فى مكة حول البيت العتيق[1]

قال أبو الفتح الشهرستانى فى صدر كلامه عن (آراء العرب فى الجاهلية الجزء الثالث من القسم الثانى ص ١٢٢٠ – ١٢٢١ من كتاب الملل والنحل) .

« ... وقبل أن نشرع فى مذاهبهم نريد أن نذكر حكم البيت العتيق – حرسه الله تعالى – ونصل بذلك حكم البيوت المبنية فى العالم ، فإن منها ما بنى على الدين الحق قبلة للناس ، ومنها ما بنى على الرأى الباطل فتنة للناس » .

وقد ورد فى التنزيل : (إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين) (٩٦ آل عمران) . وقد اختلفت الروايات فى أول من بناه : قيل : إن آدم – عليه السلام – لما أهبط إلى الأرض ، وقع إلى سرنديب من أرض الهند ، وكان يتردد فى الأرض متحيرًا بين : فقدان زوجته ، ووجدان توبته ، حتى وافى حواء – عليها السلام – بجبل الرحمة من عرفات وعرفها ، وصار إلى أرض مكة ، ودعا وتضرع إلى الله تعالى ، حتى يأذن له فى بناء بيت يكون قبلة لصلاته ، ومطافاً لعبادته ، كما كان قد عهد فى السماء من البيت المعمور ،

---

(١) عن عجالة فى تاريخ الأديان لمحمد بن فتح الله بدران .

الذى هو مطاف الملائكة ، ومزار الروحانيين فأنزل الله تعالى عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور ، فوضعه مكان البيت ، وكان يتوجه إليه ، ويطوف به .

ثم لما توفى ، تولى وصيه « شيث » عليه السلام بناء البيت من الحجر والطين على الشكل المذكور ، حذو القذة بالقذة .

ثم لما خرب ذلك بطوفان نوح – عليه السلام – وامتد الزمان حتى غيض الماء ، وقضى الأمر ، وانتهت النبوة إلى إبراهيم الخليل – عليه السلام – بنى مع إبراهيم ابنه إسماعيل ذلك البيت ، وذلك قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (١٢٧ البقرة) .

وهكذا : كان مسقط رأس الإنسانية فى « مكة » البلد الحرام ، وحول « الكعبة » بيت الله الحرام فى قلب بلاد العرب .

وهنا نسل « آدم » عليه السلام ، وهنا دبت السلالة الأولى لجميع الأنام ، وهنا تربت الأصول الأولى للرسول الخاتم سيد ولد آدم ، وهنا بقى العرب حتى بعث فيهم نبى الإسلام : (بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون) (٣٣ التوبة) .

« آدم » أول الناس فى أرض الله ، و « الكعبة » أول بيت للناس وضعه الله ، وهكذا يتعبد أول خلفاء الله ، فى بيت الله .. ثم فرض الله على الناس جميعًا حج بيته هذا ، من استطاع إليه سبيلا .

(إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) . (آل عمران ٩٦ – ٩٧) .

وقد خص الله هذا البيت بالشرف والكرامة ، وأضافه إلى نفسه ، فكان : بيت الله ، والبيت الحرام ، والبيت العتيق ، والبيت المبارك ، وهدى للعالمين .

كما خص « مكة » بالفضل والرعاية ، لأنها بلد بيته ، ومهبط وحيه ، ومنبت خاتم رسله .. فأقسم بها ، وتكفل سبحانه بأمنها ، **وخصها بالعرب أهلا لها** ..

فقال تعالى : (والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ..) (١ - ٣ التين) ، وقال لحبيبه محمد عليه السلام : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد .) (١ ، ٢ البلد) .

وهذا رب العالمين يقول عن البيت الحرام ، ومكة الأمين : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) . (البقرة ١٢٥ - ١٢٩) .

بل لقد أسكن إبراهيم الخليل ولده إسماعيل الذبيح عليهما السلام ، فى مكان هذا البلد الحرام ، وكان قفراً بلقعًا ، لا ماء فيه ولا نبات ولا شجر ، ليقيم إسماعيل وبنوه فيه الصلاة ، وليكون : قبلة للمؤمنين ، وهدى للعالمين ... (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنًا واجنبنى وبنى أن نعبد

الأصنام، رب إنَّهن أضللن كثيرًا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) . (إبراهيم ٣٥-٤١)

وأخيرًا ، يقول الله سبحانه على لسان الرسول الخاتم والنبى العربى عليه السلام :

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) . (النمل ٩١ - ٩٣)

قصة بداية الإنسان فى القرآن

فالقرآن يحكى لنا فى سورة البقرة قصة بداية خلق الإنسان واضحة صحيحة .

يقول تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) وجاعل هنا بمعنى خالق ذكره الطبرى عن أبى زروق .. والأرض قيل : إنها مكة ولذلك سميت أم القرى روى عن ابن سابط عن النبى ﷺ قال :

(دحيت الأرض من مكة[٢] . وخليفة أى يخلف من كان قبله من غير الملائكة أو من الملائكة فى الأرض . والمعنى بالخليفة هنا (الخليقة[٣] فى قول زيد بن على) أما فى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل (آدم عليه السلام) فهو أول رسول إلى الأرض كما فى قول أبى ذر : قلت يا رسول الله أنبيًّا كان مرسلا ؟ قال نعم الحديث .. ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده وكانوا أربعين ولدًا فى عشرين بطناً فى كل بطن ذكر وأنثى وتوالدوا حتى كثروا . (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء) . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وعاش تسعمائة وثلاثين سنة – هكذا ذكر أهل التوراة – وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة – والله أعلم .

وقيل إن الملائكة لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها فعمموا الحكم بالفساد والمعصية فقال الله لهم : إنى أعلم مالا تعلمون ، وحقق ذلك سبحانه بأن علم آدم الأسماء كلها وكشف للملائكة عن مكنون علم آدم الذى علمه له ويحتمل أن يكون بالإلهام أو بواسطة ملك وهو جبريل ولولا أن الله كشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة :

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر وقيل : أبا محمد . كنى بمحمد خاتم الأنبياء ﷺ قاله السهيلى .. وقيل كنيته فى الجنة أبو محمد وفى الأرض أبو البشر وأصله بهمزتين (أأدم) لأنه أفعل إلا أنهم لينوا الثانية (عن الأخفش) واختلف فى اشتقاقه .. قيل مشتق من الأدمة وهى السمرة واختلفوا فى الأدمة فزعم

---

(٢) يقول علماء الجغرافيا المعاصرون إن مكة هى مركز الكرة الأرضية .

(٣) الخليقة (بالقاف) .

الضحاك أنها السمرة وزعم النضر أنها البياض قلت (القرطبى) والصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال ابن سعيد بن جبير : إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض وإنما سمى إنسانا (لأنه نسى) .. (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا) . ذكره ابن سعيد فى الطبقات وروى السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنوآدم مختلفين ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ، فصعد به فقال الله تعالى له : (أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك) . فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها فقال : (أنت تصلح لقبض أرواح ولده) . فبل التراب حتى عاد طيناً لازباً (يلتصق بعضه ببعض) ثم ترك حتى أنتن (من حمأ مسنون) قال : (منتن) ثم قال للملائكة : (إنى خالق بشرًا[٤] من طين[٥] . فإذا سويته

---

(٤) صورا أو شخوصًا أو جسدًا : وقد ذكر الجسد فى القرآن بلفظه ٤ مرات فقط . فى سور الأعراف وطه والأنبياء و ص :

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدًا) (١٤٨/الأعراف)

(فأخرج لهم عجلا جسدًا له خوار) (٨٨/طه)

(وما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) (٨/الأنبياء)

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب) (٣٤/ص)

(٥) أحصى العلماء العناصر التى يتألف منها جسم الإنسان وقالوا : إن به من الكربون ما يكفى =

ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) . فخلقه الله بيده لكى لا يتكبر إبليس عليه . يقول : أتتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه .

فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعًا إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : (من صلصال كالفخار) ويقول : لأمر ما خلقت . ودخل من فمه وخرج من دبره فقال إبليس للملائكة لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكته ، ويقال : إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذى لم تروا من الخلائق ما يشبهه أن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ؟ قالوا : نطيع أمر ربنا فأسر أبليس فى نفسه لئن فضل على فلا أطيعه ، ولئن فضلت عليه لأهلكنه ، فلما بلغ الحين الذى أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال الله للملائكة : فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت له الملائكة : قل : الحمد لله ، فقال : الحمد لله فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح رجليه قام عجلان إلى ثمار الجنة (خلق الإنسان من عجل) .. وسجد الملائكة أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر .

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض .. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك .. والسهل والحزن والخبيث والطيب » .

= لعمل تسعة آلاف قلم رصاص ، ومن الفوسفور ما يكفى لعمل ألفى رأس عود كبريت . كذلك فى الإنسان حديد وجير وبوتاسيوم وملح ومغنسيوم وسكر وكبريت ، وهى كلها من العناصر التى تتكون منها تربة الأرض) .

وروى أبو نعيم الحافظ فى كتابه عن مرة عن ابن مسعود : أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة فيضعها على كفه ثم يقول : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال مخلقة . قال : يارب ما الرزق ، ما الأثر ، ما الأجل ؟ فيقول : انظر فى أم الكتاب فينظر فى اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله ، ويأخذ التراب الذى يدفق فى بقعته ويعجن به نطفته (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) . وخرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مولود إلا وقد ذر عليه من تراب حفرته .) .. وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقًا من طين وماء مهين .

وذكر ابن سعد فى الطبقات عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (الناس ولد آدم وآدم من التراب) . وعن سعيد بن جبير قال : خلق الله آدم عليه السلام من أرض يقال لها دجناء قال الحسن : وخلق جؤجؤه (صدره) من ضرية) (قرية لبنى كلاب على طريق البصرة وهى إلى مكة أقرب) . وعن ابن مسعود قال : إن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أديم الأرض من عذبها ومالحها فخلق منه آدم عليه السلام . فكل شىء خلقه من عذبها فهو صائر إلى الجنة، وإن كان ابن كافر، وكلّ شىء خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار، وإن كان ابن تقى ، فمن ثم قال إبليس (أأسجد لمن خلقت طيناً) لأنه أتى بالطينة .

وعن عبد الله بن سلام قال : خلق الله آدم فى آخر يوم الجمعة . وعن ابن عباس قال : لما خلق الله آدم كان رأسه يمس السماء – قال – فوطده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعًا فى سبعة أذرع عرضًا . وعن أبى بن كعب قال : كان آدم عليه السلام طوالا جعدًا كأنه نخلة سحوق . وعن ابن عباس – فى حديث فيه طول – وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجليه ، وكان آدم حين أهبط تمسح رأسه السماء ونفرت من طوله دواب البر

فصارت وحشاً من يومئذ ، ولم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، وتوفى على ذروة الجبل الذى أنزل عليه ، فقال شيث لجبريل عليهما السلام : (صل على آدم) فقال له جبريل عليه السلام : تقدم أنت فصل على أبيك وكبر عليه ثلاثين تكبيرة . فأما خمس فهى الصلاة وخمس وعشرون تفضيلا لآدم . وقيل كبر عليه أربعًا فجعل بنو شيث آدم فى مغارة وجعلوا عليها حافظاً لا يقربه أحد من بنى قابيل وكان الذين يأتونه ويستغفرون له من بنى شيث وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستًّا وثلاثين سنة .. (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) فأما الأجل الأول فالإقامة حتى الموت وقد علم الإنسان أنه مقيم بالدنيا حتى يأتى أجل الموت أما الأجل المسمى عنده فهو لم يعلمنا الله إياه وهو أجل القيامة .. (وعنده علم الساعة) .

أما قوله تعالى فى سورة الأعراف :

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) . (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ الأعراف) .

فهذه آية مشكلة تكلم العلماء فى تأويلها وأحكامها فقال قوم : إن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض وأنه تعالى أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به وفى الحديث عن النبى ﷺ غير هذين القولين وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم .. روى مالك فى موطئه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم ثم

مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : (خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون) . فقال رجل ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار) . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد . لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعبدالله بن مسعود وعلى بن أبي طالب وأبي هريرة رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم .

وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها (من ذريته) إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل رجل منهم وبيصًا من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : يارب من هؤلاء قال : (هؤلاء ذريتك) فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال : أى رب من هذا ؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، فقال : رب كم جعلت عمره قال : ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلمَّا انقضى عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة .. قال : أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته .

وفى غير الترمذى : فحينئذ أمر بالكتاب والشهود . **وروى عن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال :** (أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من

الرأس) وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره . فأقروا بذلك والتزموه وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل فشهد بعضهم على بعض . قال أبى بن كعب وأشهد عليهم السموات السبع فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد . وقال يحيى بن سلام : قال ابن عباس فى هذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم فى صلب آدم عليه السلام وسمى ذلك اليوم بيوم الميثاق .

* * *

بدء الخلق فى رأى علماء الفلك وطبقات الأرض :

رأينا أن علماء الشرع يظهرون من الأحاديث أن العرش هو أول المخلوقات العلوية وأن الماء هو أول المخلوقات المادية وأنه قبل العرش كما رواه أحمد والترمذى ثم خلق الله السموات والأرض أما أول المخلوقات المعنوية فهو القلم وليس هناك دليل يعول عليه فى أصل الكائنات من جهة الشرع .

ويتفق علماء الفلك وطبقات الأرض مع علماء الشرع فى أن الكون حدث وتطور بعد أن لم يكن ولكنهم يختلفون عنهم فى بداية هذا الحدوث وتطوره . ففى حين لا يتحدث الشرع عن ذلك .. نرى (جورج جامبو) فى كتاب تاريخ الأرض يقول : إن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة أما الأرض فقد نشأت حديثاً جدًّا ، إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط وظهرت الحياة على الأرض منذ بليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ مائتى مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها على الأرض

منذ مائة وعشرين مليون سنة .

والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ ٥٠ مليون سنة فقط .

والله أعلم بحقيقة ذلك[٦] .

(٦) العقائد الإسلامية . الشيخ سيد سابق .

obeikandl.com

ذرية آدم وأطوار خلقها

(مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطوارًا)

(١٣ و ١٤ نوح)

عرضنا فيما سبق لبعض ما قيل فى قصة خلق آدم عليه السلام ، ورأينا كيف أن الله سبحانه خلقه ولم يكن من قبل شيئاً .. ثم خلق من ضلوعه زوجاً له وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء ..

فما هى قصة خلق ذرية آدم وما هى الأطوار التى تمر بها قصة الخلق ؟

هذه بعض آيات من كتاب الله تهدينا السبيل :

- (خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم) . (٣ التغابن)
- (ثم كان علقة فخلق فسوى) . (٣٨ القيامة)
- (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق)
- (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) . (٩ مريم)
- (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) . (٣٣ الحجر)
- (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجًا) . (١١ فاطر)

– (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة) . (٦٧ غافر)

– (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه) . (٢ الإنسان)

– (إنا كل شىء خلقناه بقدر) . (٤٩ القمر)

– (أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . (٥٨ ، ٥٩ الواقعة)

– (إنا خلقناهم من طين لازب) . (١١ الصافات)

– (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث[٧]) . (٦ الزمر)

– (فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق) . (٥ ، ٦ الطارق)

– (والله خلق كل دابة من ماء) . (٤٥ النور)

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (المؤمنون)

وقبل أن نسترسل فى شرح تلك الآيات واستجلائها نقول إن من آيات الله سبحانه أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً .. ثم هو سبحانه يخلقنا فى بطون أمهاتنا خلقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث .. على عدة أطوار وصور .

وتعال معى عزيزى الإنسان نقرأ القصة من بدايتها ..

« يقول العالم الأمريكى المشهور – بنكس – وهو أحد كبار علماء البيولوجيا – علم الحياة – فى العصر الحديث وهو أيضًا مخترع أقراص منع الحمل : إن السؤال القصير المكون من ثلاث كلمات : كيف يحدث الحمل ؟ هو سؤال خطير حين يعيد الإنسان النظر فيه فهو سؤال عن كيفية تجدد الحياة . وعن

(٧) المبيض .. وقناة فالوب .. والرحم .

الخلود وكيفية دوام الإنسان على سطح الأرض .. وما أجهلنا نحن جميعًا عن معرفة أسرار الخلود أو طلاسم الحياة .. وصحيح أن العلم الحديث قد أماط اللثام عن كثير من أسرار الحياة لكن إجابته عن هذا السؤال هى الآن إجابة تحتاج إلى مزيد من البحث – وعلى الرغم من أن (بنكس) انكب على دراسة كيفية حدوث الحمل والعوامل المؤثرة فيه سواء قبل حدوثه أو فى الأيام الأولى منه ، فإنه لما نشر نتيجة دراساته فى مجلد ضخم اعترف فى نهايته اعترافًا صريحًا بأن العلم قاصر جدًّا عن إعطاء الجواب الشامل لهذا السؤال وإن الإنسان عليه أن يعجب أشد العجب لحدوث هذه الظاهرة المتناهية فى التعقيد . ألا وهى الحمل[٨] .

ما هى الظلمات الثلاث ؟

(خلقكم من نفس واحدة) (٦/الزمر)[٩]

(يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) (٦/الزمر)

قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة) : يعنى آدم عليه السلام . (ثم جعل منها زوجها) يعنى ليحصل التناسل .

---

(٨) من مقال طبى للدكتور/ أحمد التاجى الأستاذ المساعد بطب الأزهر .
نشر فى مجلة طبيبك الخاص – ونحن هنا نقصد عرض رأى بنكس بالذات لمغزاه .

(٩) قوله تعالى فى الآية ٦ من سورة الزمر :
(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون) .

قوله تعالى : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثـلاث .) أى يخلقكم فى بطون أمهاتكم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً . « قتادة والسدى فى تفسير القرطبى » .

وقال ابن زيد : خلقا من بعد خلق : خلقاً فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم فى ظهر آدم . وقيل فى ظهر الأب ثم خلقاً فى بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع . ذكره الماوردى .

« فى ظلمات ثلاث » ظلمة البطن – وظلمة الرحم – وظلمة المشيمة – قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال ابن جبير : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم وهذا مذهب أبى عبيدة .

المراحل الثلاث

ضعف – قوة – ضعف وشيبة

قال تعالى فى الآية ٥٤ من سورة الروم :

(الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

حين يولد الإنسان فإنه يكون ضعيفاً أشد ما يكون حاجة إلى الرعاية والعناية « عامان مثلا للرضاعة – عامان يزحف ولا يقوى على السير – عامان غير قادر على الكلام .. إلخ .. إلخ .

فى حين نرى طفل أى حيوان تصنع فيه العامان الأعاجيب وضعف الإنسان

ملازم له من البداية فهو فى بطن أمه جنين يتغذى عن طريق الحبل السرى ، وقد كفل الله له غذاءه بعد ولادته وقبل نزول اللبن من ثدى أمه .. ففى الأيام الأخيرة من وجود الإنسان جنينًا فى بطن أمه تختزن بعض الغدد أو بعض الخلايا أو الجيوب الداخلية فى جسمه بطريقة لا نعلمها حتى الآن ، بعض الغذاء عن طريق الحبل السرى ولا تعيش عليه بل تدخره وحين يولد الطفل ويقطع الحبل السرى تنشط هذه الغدد أو الخلايا أو الجيوب فتقوم بتغذية الطفل لحين تمكن الأم من إرضاعه ، وهى مدة تصل إلى ثمانية وأربعين ساعة .. والجنين الضعيف فى بطن أمه يسبح فى سائل يحميه فى حركته من أى صدمة أو احتكاك .. وهذا السائل شمعى يحفظ على جسمه الحرارة بديلا عن الملابس كذلك فإن الجهاز التنفسى لدى الطفل يكون غاية فى ضعفه فالرئتان كقطعتى إسفنج رخوتان فلابد من وقاية الطفل من أى تيارات حارة أو باردة قد تودى به – ويحضرنا فى ذلك – أن السيارة إذا كانت جديدة فإنك لا تستطيع السير بها إلا فى حدود سرعة معينة لمسافة معينة بعدها تقوم بتغيير الزيت وتصبح السيارة صالحة للعمل بكامل طاقتها – كذا الإنسان يبدأ ضعيفًا حتى إذا دخل مرحلة الصبا رأيته يرتدى قميصًا واحدًا شمر عن أكمامه وفتح أزراره دون أن يبالى بالطقس حارًّا كان أو باردًا .. وبعدها تأتى مرحلة يلزمك فيها مصاحبته صديقاً فالرسول ﷺ يعلمنا ذلك فيقول : « لاعب ولدك سبعًا – وأدبه سبعًا – وصاحبه سبعًا .. لكن هذا الشاب المفتول العضلات تراه إذا تجاوز الأربعين أو الخمسين وقد بدأ الشيب يغزو شعره الفاحم السواد وقد بدأ التعب يعرف الطريق إليه وزارته الأمراض والعلل ثم إذا هو يستعين للسير بالعصا وللقراءة بالعدسات وللهضم بالأدوية .. وهكذا تنصرم الأيام حتى تقوده فى نهاية حياته إلى المقر الأخير ..

فسبحان الخالق القوى المتين الذى يرينا الآيات ويضرب لنا الأمثال لعلنا

نتفكر ونتدبر ، فالإنسان كالنبات يبدأ ضعيفًا ثم يشب ويثمر ثم يهيج فتراه مصفرًا .. وهذه الحلقات الثلاث بذاتها نراها تتكرر فى الكثير من المخلوقات .. ولكنها تبدو أكثر ما تكون وضوحًا لنا فى ذلك المخلوق المسمى بالإنسان .

خلق الإنسان

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة العلق :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم .) (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) .

فى هذه الآية يخص الله سبحانه الإنسان بالذكر من دون الخلق[١٠] وهو لا يخصه بالذكر لأن خلقه أكبر فقد قرر سبحانه أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إنما يخصه بالذكر لأن التنزيل إليه كما يقول المفسرون ، فالمناسبة تقتضى أن يذكر الإنسان دون سائر الخلق ، فما نزلت الآيات إلا لتدعو الإنسان إلى عبادة ربه ببيان تفرده بالعبادة وحده ، وأول ما يجذب الإنسان إلى عبادة ربه أن يعلم أنه من خلقه خلقه خلقًا وأنشأه إنشاء ، ولم يك شيئًا قبل أن تمتد إليه يد الله بالخلق والإنشاء .

ولو خص سبحانه من خلقه ما تقوم حياة الإنسان عليه كالأرض التى يعيش عليها أو كالشمس التى لا غنى له عنها لما كان لذلك من الأثر فى نفسه أو من

---

(١٠) من كتاب بحوث فى تفسير القرآن .. سورة العلق ..م. جمال الدين عياد (١٣٨٠هـ /١٩٦١م) .

الدلالة على فضل الله عليه ما لخلق الله له وإنشائه من علق ، فخلق الإنسان وإن كان أقل دلالة على قدرة الله تعالى من خلق السموات والأرض فهو أعظم دلالة على عظيم فضله وموفور نعمه على الإنسان ، وبيان فضل الله على العباد أدفع للعبادة من بيان قدرته الفائقة ، فالعبادة شكر للنعمة واعتراف بالفضل وتقدير للجميل ، ومن ثم كان ذكر الإنسان وبيان خلق الله له أنسب للوقت وأصلح للمناسبة ، مناسبة الدعوة إلى عبادة الرب تعالى ببيان جدارته بالعبادة وحده .

الخلق من علق
من أى شيء خلقه ؟

النطفة أول أطوار الجنين :

بينما يقرر سبحانه وتعالى فى سورة العلق أنه خلق الإنسان من علق يقرر فى آيات أخرى من القرآن أنه خلق الإنسان من نطفة ، إذ يقول تعالى : (من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره) ويقول : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) وواضح من هذه الآيات أن النطفة أول أطوار الجنين وأن العلقة تالية لها وهى حقيقة أشرنا إليها فى هذا المقام ، لأنه قد يتبادر إلى الأذهان من قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) أن العلقة أول أطوار الجنين ، من ذلك قول ابن كثير فى هذه الآية التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علق ، وهذا ما نحب أن ننفيه فالنطفة سابقة للعلقة كما قرر سبحانه فى غير آية من كتابه .

وقد يتساءل القارئ الآن لماذا قرر سبحانه أنه خلق الإنسان من علق مع أن النطفة أول أطوار الجنين . لماذا رد سبحانه الإنسان إلى العلقة دون النطفة ؟

وجواب هذا السؤال يتضح إذا علمنا الغاية التى يهدف إليها سبحانه من هذه الآية فالقصد كما سنبيّن بعد – هو بيان قدرة الله الفائقة وعظيم فضله .

وهى غاية تتحقق إذا رد سبحانه الإنسان إلى العلق كما تتحقق إذا رده إلى النطفة ، فالفرق بينهما ليس بشىء بالنسبة للإنسان الذى ينتهى إليه أمرهما بقدرة الله وإرادته ، بحيث يكون خلق الإنسان دليلا على قدرة الله الفائقة سواء فى ذلك أن يقول خلق الإنسان من علق أو يقول خلق الإنسان من نطفة ، فالذى يخلق الإنسان من علق لن يعجز عن خلقه من نطفة .

ومثل ذلك كمثل المسافة بين سطح الأرض وقمة الجبل فهى ليست بشىء إلى جانب المسافة بين الأرض والقمر مثلا ، بحيث يكون إطلاق الصاروخ إلى القمر دليلا على التقدم العظيم الذى أحرزه الإنسان فى ميدان العلم ، سواء فى ذلك أطلقه من قمة الجبل أو من سطح الأرض مباشرة ، فالذى يطلق الصاروخ إلى القمر من قمة الجبل لن يعجز عن إطلاقه من سطح الأرض .

سيان إذن أن يرد سبحانه الإنسان إلى العلق أو يرده إلى النطفة مادام القصد بيان قدرته الفائقة وعظيم فضله فهى غاية تتحقق برد الإنسان إلى أى منهما ، كما يتحقق الأصل العربى أو القرشى للرسول برده – عليه السلام – إلى جده عبد المطلب أو إلى جده عبد مناف فكلا الجدين عربى قرشى .

فـالغاية التى يهدف إليها سبحانه من هذه الآيـة تتحقق بذكر العلق كما تتحقق بذكر النطفة بحيث يكون المعنى صحيحاً بذكر أى منهما ، لكن اختيار العلق دون النطفة لابد أن يقوم على أساس فنى أو لفظى .

وقد اختار سبحانه العلق ليكتمل التناسق الفنى والموسيقى اللفظية فى مطلع السورة : « خلق » و « علق » فاصلتان متحدتان فى الوزن والقافية وفى حرفين من ثلاثة حروف فلا يختلفان إلا فى حرف واحد وبهذا التقارب عبر سبحانه عن

المعنى المراد بلفظ جميل يطرب الأذن برنينه الموسيقى .

والقصد كما قال الإمام أبو عبد الله الخطيب – هو التوفيق بين الألفاظ فى أصواتها وموسيقاها مع صحة المعانى وإلى هذا الرأى يذهب أبو السعود فى تفسيره .

الإنسان بين أصله المباشر وأصله البعيد :

التراب أصل الإنسان البعيد :

ومن الملاحظات الجديرة بالتعليق فى هذا المقام ما قرره سبحانه من أنه خلق الإنسان من طين أو من تراب باعتبار التراب أصل الطين أو من صلصال باعتبار الصلصال صورة من الطين .

إذ يقول تعالى فى سورة السجدة : (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) (٧ ، ٨ السجدة) .

ويقول فى سورة فاطر : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة) ويقول فى سورة الرحمن : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) .

وواضح أن هذه الآيات وأمثالها من كتاب الله تتحدث عن خلق الإنسان الأول الذى لم يضمه رحم أو تحمله أنثى ، يؤكد ذلك قوله تعالى فى سورة ص : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) .

فالبشر المقصود فى هذه الآية هو آدم عليه السلام إذ أمرت الملائكة أن تسجد له ولم تؤمر أن تسجد لغيره من الناس .

والآيات التى تقرر خلق الناس من تراب إنما تقرر ذلك باعتبار أن جدهم الأول آدم عليه السلام مخلوق من تراب ، أما الأصل المباشر لبنى آدم فليس هو

التراب وإنما هو الماء المهين أو النطفة ، الأمشاج أو البويضة الملقحة بلغة العلم فى العصر الحديث .

والأحاديث التى استشهدنا بها على خلق الإنسان من طين تشير إلى أن المقصود بالإنسان هو الإنسان الأول وأن سلالته أو نسله هم الذين خلقوا من الماء المهين ، فذلك أصلهم المباشر والتراب أو الطين أصلهم البعيد .

ورد الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع :

ومما يلفت النظر فى الآية أيضاً ورود الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع فالعلق جمع علقة ، وإنما قال من علق على الجمع لأن الإنسان فى معنى الجمع كما يقول المفسرون ، فالإنسان فى قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) هو الإنسان فى قوله تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) وفى قوله (إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لم يقصد به تعالى إنساناً بعينه وإنما قصد الإنس جميعًا فكلهم خلق من علق .

معنى العلق :

العلق كما قدمنا جمع علقة ، وقد ذهب المفسرون على اختلافهم قديمهم وحديثهم إلى أن العلق هو الدم الجامد ونقلت عنهم الترجمات الإنكليزية للقرآن هذا التفسير فجعلت الكلمة الإنكليزية clot ترجمة للعلق فى هذه الآية والاسم المشتق منها وهى كلمة تعنى الدم الجامد الذى فسر به المفسرون عندنا بالعلقة .

تفسير العلقة بالدم الجامد يتعارض مع علم الأجنة .

وتفسير العلقة بالدم الجامد تسمح به اللغة ولا يسمح به الطب أو علم الأجنة خاصة ، فإذا استشرت قاموسًا من قواميس اللغة على اختلافها وجدت الدم

الغليظ أو الجامد من معانى العلقة ولكن الحقائق الثابتة فى علم الأجنة لا يمكن أن تفسر العلقة بالدم الجامد أبدًا . فالعلقة كما قرر القرآن فى آيات أخرى هى طور من أطوار الجنين يعقب النطفة أو البويضة الملقحة ويسبق المضغة فهى ثانى أطوار الجنين . والثابت أن الطور الذى يعقب تلقيح البويضة يتصف أول ما يتصف بظاهرة الانقسام cleavage

العلقة فى ضوء علم الأجنة :

ولئن كنا نفتقد المعلومات عن انقسام البويضة الإنسانية فإن انقسام البويضة فى الثدييات عامة وفى فصيلة من فصائل القرود قريبة الشبه بالإنسان خاصة قد كشف لنا الكثير عما يرجح حدوثه فى الإنسان .

انقسام البويضة الملقحة :

فمن دراسة لويس وهارنمان (١٩٣٣) لفصيلة Macacus rehesus – وهى فصيلة من القرود كبيرة الشبه بالإنسان – يتبين لنا – كما هو واضح من شكل (١) . أن البويضة الملقحة تنقسم إلى خليتين خلال أربع وعشرين ساعة من وقت انطلاق البويضة من المبيض ovulation ثم إلى ثلاث فأربع ثم خمس فست فسبع فثمان ، ويستمر الانقسام كذلك حتى تصبح البويضة الملقحة حول الساعة السادسة والتسعين مركبة من ستة عشر خلية ويطلق عليها فى هذه المرحلة من مراحل النمو اسم التوتة morula لما بينها ككتلة من الخلايا المتراصة بعضها فوق بعض وبين ثمرة التوت من شبه .

وصول الجنين إلى فراغ الرحم :

وعند هذه المرحلة يكون الجنين قد وصل إلى فراغ الرحم فى شكل مجموعة من الخلايا المركزية inner cell mass محاطة تمامًا بدائرة من الخلايا سيطلق عليها فيما بعد اسم التروفوبلاست Trophoblast ويحيط بهذه الدائرة غشاء يطلق عليه زونا بللوسيدا zona pellucida وهو الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلا .

وبعد وصول التوتة morula إلى الرحم تمر بتغيرات تنقلها إلى طور جديد . إذ أن سائلا من فراغ الرحم ينفذ إلى الجنين من خلال الغشاء المعروف بالزونا بللوسيدا والخلايا الخارجية التى سيطلق عليها اسم التروفوبلاست ، ويملأ السائل النافذ من الرحم الفراغات الموجودة بين خلايا الجنين المركزية والخلايا الخارجية ، وبازدياد كمية السائل النافذة من الرحم إلى الجنين تتكون فى الجنين فجوة cavity تسمى البلاستوسيل blastocoele وتزاح مجموعة الخلايا المركزية إلى جانب من الجوانب فتلتصق بالجدار الداخلى للخلايا الخارجية التى تنضم إذ ذاك وتسمى التروفوبلاست ، وفى هذه المرحلة يسمى الجنين بلاستوسيت blastocyst.

وفى هذا الوقت على وجه التقريب يختفى الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلا والذى عرفناه باسم زونا بللوسيدا . ليسمح للخلايا التروفوبلاست بالالتصاق بجدار الرحم بعد أن كان الجنين يتحرك بحرية فى قراره المكين ، ويحدث التصاق الجنين هذا أو غوصه فى جدار الرحم فى منتصف اليوم الثامن من عمر الجنين على وجه التقريب ، فأصغر ما اكتشف من أجنة البشر وجد فى اليوم الثامن من عمره فى أول عهده بمرحلة الغوص فى جدار الرحم .

وتنقسم مجموعة الخلايا المركزية إلى طبقتين طبقة سميكة علوية (اكتودرم)

وطبقة رقيقة سفلية (اندودرم) وتتكون فجوة وحويصلة (فجوة الأمينون) والحويصلة الصفراوية ، وتتكون فيما بعد طبقة ثالثة من الخلايا هى طبقة الميزودرم ، ومن هذه الطبقات الثلاث التى تميزت (الاكتودرم والأبندودرم والميزودرم) سوف تتكون فيما بعد أعضاء الإنسان المختلفة ، فتنشأ من كل طبقة مجموعة معينة لأعضاء الجنين ، وتتم تغذية الجنين فى أول الأمر بطريقة الانتشار الغشائى :

ثم لا يلبث أن يتكون فى اليوم العشرين من حياة الجنين جهاز دورى بسيط .

أطوار الجنين :

ويعتبر بعض علماء الأجنة الفترة السابقة لتكوين الجهاز الدورى البسيط الذى أشرنا إليه آنفاً والتى تبلغ غايتها بغوص الجنين فى جدار الرحم ، وتستنفد الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب يعتبرونها المرحلة الأولى من مراحل نمو الجنين .

والمرحلة التالية لها تبدأ ببداية الأسبوع الرابع تقريبًا وتنتهى بنهاية الأسبوع الثامن وتتميز هذه المرحلة بالنمو السريع والتميز الذى تتكون به جميع الأجهزة والأعضاء الأساسية للجسم وتتضح به الملامح الرئيسية .

والمرحلة الأخيرة تمتد من نهاية الأسبوع الثامن إلى المولد وتتميز هذه الفترة بسرعة النمو المذهلة أكثر مما تتميز بتخلق الأعضاء والأجهزة المختلفة .

على أن هذه التقسيمات لا تعنى بحال أن كل مرحلة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى ، إذ أن هذه المراحل يتصل بعضها ببعض ويؤدى بعضها إلى بعض .

* * *

ومن هذا العرض الموجز لأطوار الجنين يتبين لنا أن ما سماه القرآن بالمضغة لابد أن يقابل المرحلة الثانية من المراحل الثلاثة التى ذكرناها آنفاً ، وهى المرحلة التى يتخلق فيها الجنين أو تتكون أجهزته وأعضاؤه ، ذلك أن المضغة قد وصفها القرآن بأنها مخلقة وغير مخلقة ، فهى الطور الذى يتخلق فيه الجنين فتتكون أعضاؤه وأجهزته المختلفة ، أولا يتخلق كالسقط الذى قد يحدث من شذوذ فى نمو الجنين كأن يغوص فى غير المكان الطبيعى من جدار الرحم فلا يتخلق ويموت وتنزف الأم نزيفًا شديدا ، وهذه الحالات الأخيرة حالات شاذة يبلغ فيها الجنين مرحلة التخلق ولا يتخلق أولا يكتمل تخلقه فيولد ناقصًا غريب الخلقة .

النطفة والعلقة تقابلان الطور الأول :

وحيث إن النطفة والعلقة سابقتان للمضغة كما قرر القرآن ، فلابد أن تكونا مقابلتين للمرحلة الأولى من المراحل الثلاثة التى ذكرناها آنفاً والتى تبلغ غايتها بغوص الجنين فى جدار الرحم ، وتستنفد الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب .

تركيب العلقة :

وواضح أن الجنين فى هذا الطور الذى سماه القرآن علقة ليس من الدم الجامد فى شىء كما ذهب المفسرون وإنما هو مجموعة من الخلايا تميزت إلى صفين علوى وسفلى (اكتودرم وأندودرم) بالإضافة إلى فجوة الأمنيون والحويصلة الصفراوية وتركيب الخلايا التى تكون العلقة مختلفة تمام الاختلاف عن تركيب الدم الجامد ، فهى خلايا نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة التى تمثل

الخلية الإنسانية الأولى ، والبويضة الملقحة وما نشأ عنها من خلايا تتركب من نواة وسيتوبلازم بصفة أساسية .

تركيب الدم السائل :

أما الدم السائل فيتكون من سائل أصفر اللون باهت يعرف بالبلازما تسعة أعشاره ماء وعشره مواد غذائية مهضومة ، بالإضافة إلى كميات قليلة من مخلفات عضوية .

وهذا السائل المعروف بالبلازما يحوى عددًا كبيرًا من خلايا دقيقة تعرف بالكرات الدموية الحمراء ، وهى خلايا تلاشت أنويتها واحتوى سيتو بلازمها على مركب أزوتى يحتوى على الحديد يعرف بالهيموجلوبين ، ويعزى إليه لون الدم الأحمر ، وتنتشر هذه الخلايا بكثرة فى دم الإنسان بدرجة أن المليمتر المكعب الواحد من الدم يحوى خمسة ملايين من هذه الكرات .

وبالإضافة إلى هذه الكرات الحمر تحوى البلازما عددًا آخر من الكرات البيض وهى خلايا مجهرية ذات نواة وشكل بعضها متغير باستمرار ، إذ تخرج منها زوائد تتحرك بواسطتها جميعًا كما تفعل الأميبا ، وهى توجد فى الدم بنسبة أقل من الكرات الحمر ، إذ يقابل كل خمس مئات من الكرات الحمر كرة واحدة بيضاء تقريبًا .

والدم الجامد يتكون من خيوط دقيقة جدًّا تسمى خيوط الفبرين ، كانت فى الأصل مادة بروتينية ذائبة فى الدم ثم تحولت نتيجة لعمليات كيماوية إلى هذه الخيوط التى تحصر بينها فى شكل شبكة – الكرات الدموية السابقة الذكر وعددًا كبيرًا من الصفائح الدموية المتهدمة .

وواضح من الوصف الذى قدمناه للدم السائل والدم الجامد أن الجنين فى

المرحلة التى سماها القرآن بالعلقة ليس من الدم الجامد أو السائل فى شىء بل إن الجنين حتى الأيام الأخيرة من طور العلقة لم يكن يحوى خلايا دموية على الإطلاق فالراجح أن الخلايا الدموية لا تتكون طلائعها إلا حول اليوم الثامن عشر من حياة الجنين .

ومن أجل هذا نرفض ما ذهب إليه المفسرون من أن العلقة ، دم جامد ونرفض ترجمة العلقة بالكلمة الانجليزية clot التى تقابل الدم الجامد فى العربية وحجتنا فى هذا الرفض تعارض هذا التفسير مع المفهوم الطبى لما يقابل العلقة من مراحل نمو الجنين .

العلقة فى رأينا :

والعلقة – فى رأينا – هى ما يعلق بالشىء ويتشبث به وهو تفسير تسمح به اللغة ويسمح به علم الأجنة فى وقت واحد .

فاللغة لم تجعل العلقة وقفاً على الدم الجامد بل جعلت من معانيها العلوق والتشبث الذى أشرنا إليه آنفاً ، يقال علق الصيد فى الحبالة ، وعلق الصائد إذا علق الصيد فى حبالته، وعلق دم فلان بزيد إذا كان زيد قاتله، وأعلق ظفره بالشىء إذا أنشبه ، وعلق الشوك بالثوب وتعلق به إذا نشب به واستمسك ، ومن معانى العلق شىء أسود يشبه الدود يكون بالماء ، فإذا أشربته الدابة يعلق بحلقها ، والواحدة علقة ، ومنه قولهم كل بيع أبقى علقة أى شيئاً يتعلق به البائع – فهو باطل .

وكذلك تسمح الحقائق الثابتة فى علم الأجنة بتفسير العلق بما يتشبث ويستمسك بشىء آخر ، فكما قدمنا فى العرض الموجز لأطوار الجنين تمكث البويضة الملقحة حرة فى فراغ الرحم حتى منتصف اليوم الثامن على وجه

التقريب ، وإذ ذاك تعلق بجدار الرحم ثم تغوص فيه ، وتسمى كتب الأجنة هذا العلوق والغوص باسم خاص وتجعله طورًا من أطوار النمو ، ومن ثم فالعلقة عندنا هى هذا الطور الذى يعلق فيه الجنين بجدار الرحم ثم يغوص فيه ، ويبدأ هذا العلوق – كما قدمنا – فى منتصف اليوم الثامن ثم يبدأ الغوص فى جدار الرحم ويستمر حتى يبلغ الغاية قبيل اليوم العشرين ، وبهذا ينتهى طور العلقة ويبدأ طور المضغة ، الذى يستمر حتى اليوم الستين من عمر الجنين .

العلقة فى الحديث :

والباحث فى معنى العلقة عندما يصل إلى هذه المرحلة من البحث يستوقفه حديث وارد فى الصحيح فيه ما يخالف ما انتهينا إليه ، فلقد روى مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ... إلخ .

ومدلول هذا الحديث أن مرحلة العلقة تبدأ من اليوم الأربعين من حياة الجنين وتستمر حتى اليوم الثمانين ، وأن مرحلة المضغة تبدأ من اليوم الثمانين وتستمر حتى اليوم العشرين بعد المائة ، وهذا يخالف ما انتهى إليه البحث فيما قدمناه إذ قلنا إن مرحلة العلقة تبدأ فى اليوم الثامن وتنتهى قبيل اليوم العشرين وأن مرحلة المضغة تبدأ فى اليوم العشرين وتنتهى فى اليوم الستين .

غير أن القارئ لباب القدر الذى تضمن هذا الحديث سوف يجد المخرج من هذا الإشكال ، فثمة أحاديث أخرى عرضت لهذا الموضوع تخالف الحديث الذى قدمناه فى المتن والسند ، من هذه الأحاديث ما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها

ملكا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يارب أذكر أم أنثى ؟ فبقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك». ومؤدى هذه الرواية أن مرحلة المضغة التى يكون فيها التخلق تبدأ من الليلة الثانية والأربعين لا من اليوم الثمانين كما تقول الرواية الأولى التى أثارت الإشكال.

وقد تنبه النووى فى شرحه لصحيح مسلم إلى هذا الاختلاف أو التناقض بين الروايات ، وحاول أن يبرره بما قاله القاضى وغيره من أن القول فى الرواية الأخيرة ليس على ظاهره ولا يصح أن يحمل على ظاهره ، وأن المراد من تصويرها وخلق سمعها إلى آخره – فيما يرون – أن الملك يكتب ذلك ثم يفعله فى وقت آخر . وقد استندوا فى رأيهم هذا إلى أن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود فى العادة وإنما يقع فى الأربعين الثالثة وهى مدة المضغة .

وهو فهم قدمنا خطأه بما هو ثابت فى علم الأجنة من أن الطور الذى يتميز بالتخلق من أطوار الجنين إنما يقع بين اليوم العشرين والستين ، فالتخلق إذن لا يبدأ فى اليوم الثمانين أو فى الأربعين الثالثة كما قالوا ، وإنما يبدأ منذ اليوم العشرين ولا يكاد يبلغ الجنين اليوم الستين من حياته على وجه التقريب حتى تكون أجهزته الرئيسية قد تكونت طلائعها واكتسب الملامح الرئيسية التى تميزه كإنسان بعد أن كان لا يختلف عن أجنة الحيوانات الأخرى فى كثير.

ونحن لا نذكر هذا لنلوم شراح الحديث على فهمهم هذا ، فلم يكن علم الأجنة قد تقدم أيامهم بالدرجة التى تكشف عن هذه الحقائق ، وإنما ذكرناه لنبين أن القول فى الرواية الثانية للحديث لا يجوز أن يحمل على غير ظاهره لما فى ذلك من تعارض مع الحقائق الثابتة فى علم الأجنة وإن حمله على الظاهر يجعله أقرب إلى هذه الحقائق إذ يفيد أن التخلق يكون فى الليلة الثانية والأربعين ،

أى فى الليلة الوسط مرحلة المضغة على وجه التقريب إذ جعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين كما قدمنا القول .

والحديثان – اللذان وجدنا بينهما ما قدمنا من تعارض – من أحاديث الآحاد التى تفيد الظن ولا تفيد القطع واليقين .

والموقف الذى يتخذه علماء الحديث أو علم مصطلح الحديث فى هذا الصدد يتركز فى خطوات ثلاث :

أولا : محاولة التوفيق بين الحديثين المتعارضين ، فإذا أمكن الجمع بينهما فإننا نصير إليه .

ثانيًا : وإذا لم يمكن الجمع حاولنا الترجيح فإذا استطعنا ترجيح حديث على آخر لسبب معقول أخذنا بالراجح وتركنا المرجوح .

ثالثاً : وإذا تعذر الترجيح أمسكنا عن القول وتوقفنا عن الأخذ بالحديثين معًا واعتبرناهما كأن لم يكونا مفوضين الأمر إلى الله عز وجل .

وفيما يتعلق بالتوفيق بين الحديثين لا نجد ما يعيننا عليه ، فالتعارض بينهما واضح وحمل الحديث الثانى على غير ظاهره لا يجوز كما قدمنا القول .

وفيما يتعلق بالترجيح نجد من اليسير علينا أن نرجح الحديث الثانى لما قدمناه من أنه أقرب إلى الحقائق الثابتة فى علم الأجنة فمؤدى هذا الحديث أن الله يبعث الملك ليصور الجنين فى الليلة الثانية والأربعين ، وهى الليلة الوسط من مرحلة المضغة التى يجعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين ، والحديث لا يفيد أن بداية التخلق فى الليلة الثانية والأربعين إنما يفيد أن الملك يصور السمع والبصر.. إلخ فى هذه الليلة ، وقد يعنى هذا أن الشكل الخارجى للعين والأذن يتضح فى هذا الوقت وأن بداية التخلق تكون قبل ذلك ولعلها فى اليوم العشرين كما رجح العلم .

وقد قدمت لنا كتب الأجنة صورًا للمضغة فى مراحل التخلق المختلفة وجعلت أمام كل صورة عمر الجنين على وجه التقريب .. والصورة التى تصور الجنين فى اليوم الثالث والأربعين من عمره أى فى الوقت الذى حدده الحديث الراجح عندنا تقريبًا يتضح فيها الشكل الخارجى للعين والأذن واليد والقدم ، بعد أن كانت غير ظاهرة تمامًا فيما سبق من أطوار، وفيها يقترب الجنين من الشكل الإنسانى ، ولعل الحديث يشير إلى هذه المرحلة من النمو الجنينى دون أن ينكر مراحل التخلق السابقة التى انتهت بالجنين إلى هذا الطور . أو لعله يشير إلى مرحلة أخرى لاحقة لهذه المرحلة من مراحل التخلق ، فالصورة التى سجلتها كتب الأجنة وقدرت عمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يومًا على وجه التقريب يزداد فيها اقتراب الجنين من الشكل الإنسانى وتتضح ملامحه الرئيسية بشكل ملحوظ ، وتقديرهم لعمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يومًا إنما هو تقدير على وجه التقريب لا التحديد ، وقد يكون عمره فى الحقيقة اثنين وأربعين يومًا أو ما يقرب من ذلك كما أشار الحديث .

ومن هذا الذى قدمناه يتبين لنا أن الحديث الثانى هو الراجح عندنا لأنه يتفق مع ما انتهى إليه علم الأجنة فى هذا الشأن .

وإذا لم يرتض القارئ ترجيحنا هذا فهو فى حل من أن يتوقف عن الأخذ بالحديثين معًا ويعتبرهما كأن لم يكونا ويقف بالبحث عند النتيجة التى انتهينا إليها .

الحكمة فى ذكر الخلق من علق :

والخلق من علق كما أشرنا فى عنوان هذا الفصل – دليل قدرة الله الفائقة وعظيم فضله . وقدرة الله سبحانه تتضح من هذه النقلة المذهلة التى جعلت من

العلق إنسانًا وعلى قدر إدراكنا لهذه النقلة يكون إدراكنا للقدرة الإلهية :

١ – فالعلقة – عندما تعلق بجدار الرحم وتتهيأ للغوص فيه لم يكن يزيد طولها عن جزء من المليمتر فإذا جاءت ساعة المولد بلغ طول الوليد خمس مئات من المليمترات ، ومعنى هذا أن العلقة قد أصبح طولها مثل ما كانت عليه مئات المرات .

٢ – والعلقة التى يبلغ طولها نصف « ملليمتر » لا يمكن أن تقول إنها تزن شيئًا فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلا يزن ٣٢٥٠ جرامًا أو سبعة أرطال على وجه التقريب ، وهى نقلة رائعة لا يمكن أن تصورها الأرقام .

٣ – والعلقة ، بعد هذا غير مخلقة على الإطلاق فهى خالية تمامًا من الأعضاء والأجهزة المميزة للجسم الإنسانى ، فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلا تام التخلق له ما نعرف من أعضاء الجسم الإنسانى وأجهزته المختلفة ، ولا يلبث الطفل أن ينضج عقله ويعلمه الله ما لم يكن يعلم ، فيبعث الطيارة إلى أعلى السحاب ويرسل الغواصة إلى أعماق المحيط ويطلق الصاروخ إلى سطح القمر وهو الذى كان فى أرحام الأمهات علقة لا يبلغ طولها المليمتر الواحد ولا تزن شيئاً أو تعقل أمرًا .

وبرغم ما وصل إليه العلم فى عصرنا الحاضر من تقدم مذهل لايزال تخلق الأجنة أمرًا مذهلا محيرًا للعلماء لا يستطيعون تفسيره أو تعليله ، ولا يزال السؤال قائماً : كيف تميزت الخلية الإنسانية الأولى إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات وغيرها ؟ .

ولقد حاول بعض العلماء حل المشكلة ولكن محاولتهم – فيما نرى تركت المشكلة دون حل ، من ذلك قول وودورث Woodworth وماركيس : Marquis

(أن الأصل الوراثى لخلايا الجسم المتعددة واحد ، فكلها نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة ، ومن ثم فإن التميز إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات لابد أن يكون من أثر البيئة وحدها) .

(والبيئة التى توجد فيها الخلية من خلايا الجنين غير البيئة التى يوجد فيها الجنين ككل ، فبيئة الجنين هى الرحم بما فيه من غذاء ودفء ، وبيئة الخلية الواحدة من خلايا الجنين هى مجموعة الخلايا المحيطة بها) .

(وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور تحاط الخلية فى جزء ما من الجسم بمجموعة من الخلايا تختلف عن مجموعة الخلايا التى تحيط بخلية أخرى فى جزء آخر من الجسم) .

(وهكذا تختلف بيئة الخلية فى هذا الجزء عن بيئة الخلية فى ذاك الجزء من الجسم ، وينشأ عن اختلاف البيئتين تميز هذه الخلية إلى خلية أعصاب مثلا وتميز تلك إلى خلية عظام أو عضلات .. إلخ) .

وواضح – كما قدمنا – أن هذه المحاولة تركت المشكلة – التى أريد حلها – قائمة تنتظر الحل ، فلقد دار صاحباها فى حلقة مفرغة : قالا : إن تميز الخلايا يرجع إلى اختلاف بيئاتها واختلاف بيئاتها يرجع إلى تميزها .

وهذا ظاهر مما بين الأقواس مما نقلناه عنهما، فلقد قالا وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور.. دون أن يبينا كيف يبدأ هذا التميز فى الظهور، أو يذكرا أن هذا التميز هو المشكلة التى حاولا حلها، وهكذا دارا – كما قلنا – فى حلقة مفرغة تبدأ بالمشكلة دون حل، وتنتهى بها دون حل أيضًا.

ولئن دل خلق الإنسان من علق على قدرة الله الفائقة فإنه يدل كذلك على فضله العظيم ، فالخلق من أكبر النعم لا ريب . لم يكن الإنسان قبل شيئًا فأصبح

به شيئاً ، وأى شىء ، وقد قدمنا القول فى أن ذكر الخلق فى الدفعة الأولى من القرآن متصل تمامًا بالمناسبة التى نزلت من أجلها الآيات .

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . (٢ /الإنسان)

الإنسان : أى ابن آدم من غير خلاف . من نطفة : أى من ماء يقطر وهو المنى ، وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة يقول **عبد الله بن رواحة** يعاتب نفسه :

ما لى أراك تكرهين الجنة هل أنت إلا نطفة فى شنة

[الشنة : القربة]

وجمعها نطف ونطاف . أمشاج : أخلاط . ويقال مشجت هذا بهذا أى خلطته فهو ممشوج ومشيج مثل مخلوط وخليط [١١] **وقال المبرد** : اختلاط النطفة بالدم . **وقال الفراء** : أمشاج : أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة ، ويقال للشىء من هذا إذا خلط مشيج كقولك خليط وممشوج كقولك مخلوط . وروى عن **ابن عباس** رضى الله عنه قال : الأمشاج : الحمرة فى البياض والبياض فى الحمرة . وهذا قول يختاره الكثير من أهل اللغة .

وعن ابن عباس [١٢] أيضاً قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا

---

(١١) القرطبى ص ٦٩١١ تفسير سورة الإنسان . ط دار الشعب – القاهرة .

(١٢) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى والمعنى : « من نطفة قد اختلط فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف فى الرقة والتخن والقوام والخواص تجتمع من الأخلاط وهى العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له .

مرفوعًا ذكره البزار . وروى عن ابن مسعود : أمشاجها : عروق المضغة . وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال ابن عباس : خلق من ألوان . خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهى نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه . قال قتادة : هى أطوار الخلق ، طور علقة ، وطور نطفة ، وطور عظامًا ، ثم يكسو العظام لحماً ، كما قال فى سورة المؤمنين : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين .) الآية .

وقال **ابن السكيت** : الأمشاج : الأخلاط ، لأنها ممتزجة من أنواع ، فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة ، وقال أهل المعانى : الأمشاج ما جمع وهو فى معنى الواحد ، لأنه نعت للنطفة ، وروى عن أبى أيوب الأنصارى : قال : جاء حبر من اليهود إلى النبى ﷺ فقال : أخبرنى عن ماء الرجل وماء المرأة فقال : « ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق ، فإذا علا ماء المرأة آنثت ، وإذا علا ماء الرجل أذكرت . » فقال الحبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

ويقول **أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى** : فى الجامع لأحكام القرآن .. يقول **الفراء والأخفش** (الماء الدافق) الذى خلق منه الإنسان هو الماء (المنى) المصبوب فى الرحم ، أما الزجاج فيقول من ماء ذى اندفاق وهو ماءان ماء الرجل وماء المرأة لكن جعلهما ماء واحدًا لامتزاجهما (نطفة أمشاج) وعن عكرمة عن ابن عباس : (دافق) لزج .. (من بين الصلب) : الظهر – ظهر الرجل – (والترائب) : الصدر – موضع القلادة من صدر المرأة .. بين ثدييها . وعن ابن جبير **عن ابن عباس** : **الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدر .. وقال معمر بن أبى حبيبة المدنى : الترائب**

عصارة القلب ومنها يكون الولد ، والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر .. والتربية واحدة التراثب .

وفى التفسير : [١٣] يخلق من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدم، وقاله الأعمش. وفى سورة الحجرات : (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وقيل : إن ماء الرجل يترل من الدماغ ثم يجتمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : (من بين الصلب) لأنه إن نزل من الدماغ فإنما يمر بين الصلب والتراثب . وقال الحسن : المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ، وهذه هى الحكمة فى غسل جميع الجسد من خروج المنى . كما أن المكثر من الجماع يجد وجعًا فى ظهره وصلبه لخلو صلبه عما كان محتبسًا فيه من الماء . ونحن إذا تتبعنا النطفة وكيف تصبح مختلطة ، فإننا نقول بتبسيط شديد إن الحمل إنما يحدث عن التقاء الماء (الحيوان المنوى للرجل) بالبويضة للأنثى ، وحين يتم هذا اللقاء يتحد الاثنان فى خلية واحدة ، ثم تنقسم هذه الخلية إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان وست عشرة .. وهكذا لتصبح فى النهاية ملايين الملايين من الخلايا التى تكون الطفل الكامل المستعد لاستقبال الحياة بعد تسعة شهور .

ولكن هذا التبسيط الشديد يحتاج إلى بعض الشرح لعدد من النقاط :

أولا : بويضة الأنثى تنطلق من مبيض السيدة مرة واحدة كل شهر ، وذلك فى منتصف الشهر المطمئن لها (حوالى ١٢ – ١٤ يوماً) من بعد بدء الدورة الشهرية للمرأة وغالباً ما يفرز أحد المبيضين بويضة كل شهر بالتتابع : من المبيض اليمين والشمال أما إذا حدث أن تقابلا مع الحيوانات المنوية فيحدث

(١٣) تفسير القرطبى .

الحمل فى توءمين اثنين أو ثلاثة أو أكثر والبويضة خلية متناهية فى الصغر محاطة بعدة خلايا أخرى أصغر منها لحمايتها وتغذيتها وبعد خروج البويضة من المبيض يلتقطها بوق الرحم وتسير ببطء مع التيار فى البوق فى انتظار مقابلة الحيوان المنوى ليتم الاتحاد بينهما والحمل ، أو ليجرفها التيار إلى الرحم ثم إلى الخارج بدون أن يشعر بها أحد على الإطلاق وبويضة الأنثى قليلة العدد : واحدة فقط كل شهر ثم هى تتحرك ببطء ودلال فى انتظار الذكر ، ولها وسائلها الخاصة فى اجتذاب الذكر بأنزيمات خاصة لها فعل السحر فى هذا المضمار .

وبعكس بويضة الأنثى **فالحيوانات المنوية للرجل** يقدر عددها بالملايين فى كل مرة وهى سريعة الحركة تنطلق بلا هوادة نحو هدفها الأمثل وهو الاتحاد مع البويضة (ماء دافق) ، وفى طريقها للبويضة تلاقى صعابًا كثيرة فى رحلتها الطويلة . فعند الاتصال الجنسى توضع هذه الملايين من الحيوانات فى الجزء العلوى من مهبل الأنثى وهنا تقابلها عقبات مميتة . ذلك أن طبيعة إفرازات المهبل حمضية لا تستطيع الحيوانات المنوية أن تعيش فيها سوى بضع دقائق بالرغم من أن السائل المنوى قلوى الطبيعة ليعادل الحموضة القاتلة فى المهبل .. ولكن معظم الحيوانات تتغلب على تلك العقبات بالسباحة سريعًا إلى أعلى لتجتاز عنق الرحم . ولكى تمر الحيوانات (المهبلية) بعنق الرحم فعليها أن تمر بأهوال أشد وأمر من حموضة المهبل ، فعنق الرحم مبطن بغشاء مخاطى كثير الانحناءات والانثناءات فيما يشبه قصور التيه أو (بيوت جحا) ، وفى هذا التيه يموت كثير من الحيوانات المنوية وهى تحاول إيجاد مخرج ، ولا ينجح فى المرور خلال قناة عنق الرحم إلا ملايين قليلة من تلك الحيوانات المسكينة التى كانت قد بدأت رحلتها منذ دقائق بكل جدية ونشاط . وتخرج الحيوانات التى نجت إلى الرحم نفسه لتقابل هولا جديدًا — فالرحم تجويف يعتبر بالنسبة لهذه الحيوانات

الصغيرة تجويفًا واسعًا جدًّا تتخبط فيه بحثًا عن فتحة ضيقة لبوق الرحم وهى فتحة كرأس الدبوس وبذا تهلك ملايين جديدة فى هذه الرحلة ، ويصل عدد قليل من الحيوانات فى بوق الرحم ويكون عليها أن تسبح فى البوق بعكس اتجاه التيار فيه برغم أنه رفيع وملتو حتى تصل إلى البويضة ، وتتسابق الحيوانات التى وصلت للاتحاد بالبويضة ولكن حيوانًا واحدًا منها فقط هو الذى ينجح فى هذا المضمار فى الوصول إلى هذا القرار المكين ويتحد بالبويضة ، وتنتج خلية ملقحة كاملة تتقاسم لتصبح فيما بعد علقة (الزيجوت) .

أما العلقة : فهى الدم الجامد .. والعلق الدم العبيط أى الطرى وقيل الشديد الحمرة وهى تلتصق بواسطة المشيمة فى جدار الرحم ٤٠ يومًا لتصير مضغة .

والمضغة : هى قطعة اللحم بقدر ما يمضغ ومنه الحديث (ألا وإن فى الجسد مضغة) وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفى العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح فذلك عدة المتوفى عنها زوجها – أربعة أشهر وعشر . وروى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة حدثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمران : أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه فقال يارب ، ذكر أم أنثى ، شقى أم سعيد ، ما الأجل والأثر ، بأى أرض تموت ؟ فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتها فى أم الكتاب فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت فى المكان الذى قدر لها ثم قرأ عامر (يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) . وفى الصحيح عن أنس بن مالك – ورفع الحديث – قال : إن الله قد وكل بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة . أى رب علقة . أى رب مضغة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال

الملك : أى رب ذكر أو أنثى شقى أو سعيد . فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه – وفى الصحيح أيضًا عن حذيفة بن أسيد الغفارى : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث إليها الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول : أى رب أذكر أم أنثى .. » وذكر الحديث .

وفى الصحيح عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « **إن أحدكم – يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد .. » رواه البخارى ومسلم.**

فهذا الحديث مفسر للأحاديث الأولى فإن فيه : (يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين يومًا علقة ، ثم أربعين يومًا مضغة ، ثم يبعث الله الملك فينفخ فيه الروح) . فهذه أربعة أشهر وفى العشر ينفخ الملك الروح وهذه عدة (المتوفى عنها زوجها) كما قال ابن عباس . سئل الأعمش : ما يجمع فى بطن أمه ؟ قال حدثنا خيثمة قال : قال عبد الله : إذا وقعت النطفة فى الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرًا طارت فى بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يومًا ثم تصير دمًا فى الرحم . فذلك جمعها وهذا وقت كونها علقة (١٤) .

---

(١٤) فترة الحمل تبلغ ٩ شهور عربية أو ١٠ شهور قمرية لاعتبار الشهر القمرى ٢٨ يومًا وهذه الفترة قابلة للعجز والزيادة . وقد اصطلح الأطباء على احتساب فترة الحمل ابتداء من أول يوم فى الحيض السابق للحمل مباشرة مضافًا إليه ٢٨٠ يومًا .

وليس معنى هذا أن المرأة الحامل لابد أن تضع مولودها فى هذا التاريخ بالضبط ، وإنما هناك احتمال أن يتقدم أو يتأخر الوضع أسبوعًا أو أسبوعين عن هذا التاريخ المحدد علميا .

– **ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يومًا** وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله فى الخامس كما بيناه بالأحاديث . وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام فى الاستلحاق عند التنازع وفى وجوب النفقات على حمل المطلقات ، وذلك لتيقنه بحركة الجنين فى الجوف ، وقد قيل إن الحكمة فى عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر وهذا الدخول فى الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

– **ومذهب مالك** رضى الله عنه أن النطفة ليست بشىء يقيناً ولا يتعلق بها حكم إذا لم تجتمع فى الرحم ، فهى كما لوكانت فى صلب الرجل ، فإذا طرحته المرأة علقة، فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد. وعلى هذا يكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضى العدة، ويثبت به لها حكم أم الولد، وهذا مذهب مالك رضى الله عنه وأصحابه.

وقال الشافعى رضى الله عنه :

لا اعتبار بإسقاط العلقة وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط فإن خفى التخطيط وكان لحمًا فقولان بالنقل والتخريج والمنصوص أنه تنقضى به العدة ولا تكون أم ولد . قالوا : لأن العدة تنقضى بالدم الجارى فبغيره أولى .

والمضغة (مخلقة وغير مخلقة) : قال الفراء : (مخلقة) تامة الخلق (وغير

= وفى حالات نادرة جدًّا قد يتأخر الوضع كثيرًا جدًّا فبعض الحالات : طال الحمل فى إحداها حتى ٣٣١ يومًا وحالة أخرى إلى ٣٤٩ يومًا – ومثل هذه الحالات مشهورة تداولت المحاكم بعضها لإثبات الأبوة حيث حدثت الولادة بعد فترة طويلة من انفصال الزوجين (طبيبك الخاص العدد ٧٠ – أكتوبر ١٩٧٤) ص ١٠٥ من مقال للدكتور (على البر.. أخصائى أمراض النساء والولادة) .

مخلقة) السقط . وقال ابن الأعرابى : مخلقة قد بدأ خلقها وغير مخلقة لم تصور بعد . وقال ابن زيد : المخلقة التى خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين وغير مخلقة التى لم يخلق فيها شىء . قال ابن العربى : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلقة لأن الكل من خلق الله تعالى . وإن رجعنا إلى التصوير الذى هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : (ثم أنشأناه خلقًا آخر) . فذلك ما قال ابن زيد .

– والتخليق من الخلق وفيه معنى الكثرة فما تتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقًا بعد خلق وإذا كان نطفة فهو غير مخلوق . (القرطبى) .

وأجمع الشافعى وأبو حنيفة : على أن المولود إذا استهل صارخًا يُصَلَّى عليه فإن لم يستهل صارخًا لم يصل عليه . وقاله ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السقط ويقول سموهم واغسلوهم وكفنوهم وحنطوهم فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم قال ابن العربى : لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبين خلقه فهو الذى يسمى وما لم يتبين خلقه فلا وجود له .

(يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا) . (سورة الحج) .

وفى هذه الآية يبين الله لنا قدرته بتصريفه أطوار الخلق .. (ونقر فى الأرحام ما نشاء) قال تعالى : (ما نشاء) وليس من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل

أى نقر فى الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة وهى جماد فكنى عنها بلفظ ما[١٥] .

وقوله تعالى : (ثم نخرجكم طفلا) أى أطفالا فهو اسم جنس وأيضًا فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد . قال تعالى : (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) . وقال تعالى : (فإن طبن لكم عن شىء منه نفسًا) والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) وولد كل وحشية أيضًا طفل ، ويقال جارية طفل وجاريتان طفل وجوار طفل وغلام طفل وغلمان طفل . ويقال أيضًا : طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال ولا يقال طفلات . وأطفلت المرأة أى صارت ذات طفل والمطفلة : الظبية معها طفلها وهى قريبة عهد بالنتاج . والطفل (بتشديد وفتح الطاء) هو الناعم يقال جارية طفلة (أى ناعمة) وبنان طفل .. وقد طفل الليل إذا أقبل ظلامه .

والطفل : بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب . والطفل أيضًا : مطر .

(ثم لتبلغوا أشدكم) : أى كمال عقولكم ونهاية قواكم .

(ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) : أى أخسه وأدونه وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل .

(لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا) . قال تعالى : (ومن نعمره ننكسه فى الخلق) .

---

(١٥) نقصد هنا الكلام عن الإقرار والإخراج (السقط) وليس عن الإجهاض .. فتلك قضية أخرى تحرمها الأديان إلا لضرورة يقررها الأطباء المتخصصون . وليس هنا موضع بحثها . كذلك لم نقصد أن نعرض هنا لعقم الرجل وعقم المرأة أو وسائل منع الحمل وغيرها حيث يمكن أن تكون تلك دراسة مستقلة .

وكان الرسول ﷺ يدعو فيقول : (اللهم إنى أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الحين وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر) . أخرجه النسائى عن سعد[١٦] .

* * *

ولسنا نريد هنا أن نعرض للوفاة (الموت) ولكنا نقف لنقول لبنى البشر بعد ما أوضحناه ألم يأن للذين ألغوا عقولهم وعطلوا حواسهم أن يتدبروا خلق الله حتى فى أنفسهم وهو الذات الإنسانية) ؟؟ أم على قلوب أقفالها ؟؟ فإذا كانت لديكم حجة تتذرعون بها فى ضلالاتكم فـ (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) و (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) . (يأيها الناس ضرب مثل

---

(١٦) فى بحث قام به الدكتور/محمد عصام فكرى أستاذ الأمراض الباطنية بجامعة الإسكندرية ونشرته مجلة جمعية أمراض الشيخوخة الأمريكية ذكرت بعض الأرقام التى تصور ما الذى يحدث فى الجسم عندما يتقدم العمر من أهمها :

الوزن : يصبح المتوسط ٦٢ كيلو جرام بدلا من ٧٠ كجم (المتوسط فى سن الشباب) .

الطول : يصبح المتوسط أقل بين ٣ ، ٥ سنتيمترات (لعدم استقامة العمود الفقرى) .

القلب : يصبح أصغر وزناً (من ٢٨٠ – ٣٤٠ جراما فى الشباب إلى ٢٥٠ جم فى الشيخوخة) .

الكبد : يصبح أصغر وزناً (من ١٥٠٠ – ١٦٠٠ جراما فى الشباب إلى ١١٠٠ جم فى الشيخوخة) .

الرئتان والمخ : الرئة اليمنى من ٦٢٥ جم إلى ٤٥٠ جم واليسرى من ٥٦٥ جم إلى ٣٥٠ جم والمخ من ١٢٥٠ – ١٤٠٠ جم فى سن الشباب إلى ١١٢٠/٩٠٠ جم فى سن الشيخوخة) .

الكليتان : من ١٧٠/١١٥ جم إلى ١٣٠/٦٠ جم .

الطحال : من ٢٠٠/١٠٠ جم وأحياناً إلى ٥٠ جم .

الخصيتان : من ٥٠ فى الشباب إلى حوالى ٢٥ جم – كذلك ينخفض وزن أمام الرحم فى المرأة من ٦٠ جم إلى ٤٠ جم ووزن المبيضين من ١٢/١٠ جم إلى ٤جم .

أوزان ثابتة : الغدة الدرقية – غدة فوق الكلية .

أوزان تزيد : البروستاتا هى العضو الوحيد الذى يزيد وزنه مع الشيخوخة (من ٨جم فى سن الشباب إلى ٥٠ أو ٦٠ جم فى سن الشيخوخة) .

فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) .

obeikandl.com